هايدغر ونظريَّة الإنسان المائت وحيدًا
نقد الهايدغريَّة المتشائمة

باول إدواردز
فيلسوف أميركي من أصل نمساوي

ملخص إجمالي:

لو كان من مزية مفارقة في فلسفة الألمانيِّ مارتن هايدغر، فسوف نلقاها في مواجهته لفكرة الموت. ونستطيع القول أنَّ هذه الفكرة سيكون لها أثرٌ انعطافيٌّ على مجمل المباني التي تشكَّلت عليها منظومته الميتافيزيقيَّة.

يبيِّن الفيلسوف الياباني هاجيم تاناب في مقالة كتبها بمناسبة ميلاد هايدغر السبعين، أنَّ التأثُّر العميق الذي شعر به أثناء لقائه الأوَّل به يعود إلى اهتمامه بالموت بوصفه مركز الفلسفة ودعامتها. ويمكن أنْ نجد تعابير مشابهة عن الإعجاب بنقاشاته لمسألة الموت في كتابات كثير من تلاميذه، وسنُعطي مثالين فقط: يُؤكِّد ويليام باريت- في سياق ثنائه الكبير عليه أنَّ:«تحليله للموت ربمَّا يكون التفسير الأكثر أهمّيَّة والأكثر قبولاً في تصوُّره الشامل للإنسان». إلى ذلك يقول اللَّاهوتيُّ الإنجيليُّ جيمس م. دمسك الذي تأثَّر عميقًا بفيلسوف الدازاين: «من أصالة الفهم الهايدغريِّ أنَّ هايدغر لا يطرح مسألة (الموت) بحدَّة وقوَّة غير مسبوقة فحسب، بل أيضًا يضفي عليها عمقًا وجوديًّا جديدًا».

من جانبي، فإنّني لا أوافق هذين الكاتبين رأيهما المبالغ فيه عن كتابات هايدغر. من أجل ذلك سأعمل في هذه المقالة على تبيين بعض أسباب عدم اعتقادي بأنَّ تحليله للموت تفسير مقنع، ولماذا لا أرىٰ في مناقشاته للموضوع القوَّة والحدَّة غير المسبوقة. وبسبب محدوديَّة مساحة البحث فقد ركَّزت علىٰ ثلاثة مبادئ هايدغريَّة كبرىٰ:

أ- رأي هايدغر أنَّ الموت إمكانيَّة لا علائقيَّة، أي أنَّه الإمكانيَّة الأقصىٰ للإنسان.

ب- زعمه أنَّ حياة الإنسان هي وجود - نحو – الموت.

ج- ما كتبه عن الموت في كتاب الوجود والزمن وهو قليل. فما كتبه عن الموت بعد الوجود والزمن قليل، لكنَّنا سنضطرُّ لمعالجة وافية تُغطّي حتماً الأعمال اللَّاحقة[1].

* * *

مفردات مفتاحيَّة: الإنسان المائت وحيدًا- الوجود- الزمان- الكينونة - الدازاين- لا عقلانيَّة الموت.

---

[1]- بعض مبادئ هايدغر التي لم تناقش في هذه المقالة جرت مناقشتها بإسهاب في كتابي الذي أصدرته بعنوان:
'Existentialism and Death: A Survey of Some Confusions and Absurdities', in S. Morgenbesser, et al., Philosophy, Science and Method - Essays in Honor of Ernest Nagel (New York, 1969), hereafter cited as ED.

تعريب: جانيت أبي نادر.
مراجعة: مجلس التحرير.

علوم المبدأ LLMOLMABDAA
العدد التاسع - 1446هـ - ربيع 2024م

تمهيد

وحدة الموت المزعومة

المبدأ الهايدغريُّ الأوَّل الذي سآخذه بالاعتبار هو الذي يتمُّ التعبير عنه عادةً بالقول: إنَّ كلَّ إنسان يموت وحيدًا. وهايدغر نفسه لم يشأ استعمال عبارة «allein» الألمانيَّة التي تعني وحيد، إلاَّ أنَّه آثر استخدام تعابير مختلفة لها الدلالة نفسها. وعليه، فهو يتكلَّم باستمرار عن الموت بوصفه إمكانيَّة غير عقلانيَّة. يقول في هذا الصدد: «عندما يكون (الموت هو القضيَّة) فإنَّ كلَّ وجود إلىٰ جانب الأشياء التي تثير اهتمامنا، وكلُّ وجود مع الآخرين سيفشل[1].

عندما يواجه الـ **دازاين** (الإنسان) موته، أي عندما يكون وجهًا لوجه أمام (إمكان أنَّه لم - يعد - قادرًا - علىٰ - الوجود هناك)، إذًا كلُّ علاقاته بأيِّ دازاين أُخر باتت باطلة[2].

الميزة اللاَّعلائقيَّة للموت - كما تفهم مسبقًا - تردُّ فردانيَّة الـ «**دازاين**» إلىٰ ذاته[3].

في هذه الإمكانيَّة المتميِّزة لذاتها، والتي يكون فيها وجودها ذاته هو القضيَّة، يتم انتزاع الـ **دازاين** من الـ هُم (الناس الآخرين)[4]. ذلك لأنَّ الموت يجب أنْ يستحوذ عليه الـ **دازاين** وحده»[5]. ربما لهذا الداعي استخدم أتباع هايدغر الذين كتبوا باللُّغة الإنكليزيَّة مفردات مثل: وحيد[6] ومنعزل[7] للتعبير عن هذا المبدأ. وأعتقد أنَّهم - بفعلهم هذا – كانوا مخلصين تمامًا لمقاصد هايدغر. بالنسبة لجون ماكواري[8] فإنَّ «الموت يعزل الفرد، ويجب أنْ يموت وحيدًا»[9]. وقال جون ويلد[10] متحدِّثًا عن الموت: «هذا الشيء علىٰ الأقلِّ يجب أنْ أفعله بمفردي»[11]. يضيف: إنَّ الموت «فعل حقيقيٌّ يعيشه المرء بمفرده»[12]. وبتعبير الإنجيليّ جون كالفن[13]: «كلُّ فرد يجب أنْ يموت وحيدًا»[14]. وفي

---

[1]- Being and Time, trans. John Macquarrie and Edward Robinson (London, 1962), p. 308.Being and Time will hereafter be cited as BT.

[2]- الكينونة والزمن Sein und Zeit ص 294.

[3]- الكينونة والزمن Sein und Zeit ص 308.

[4]- الكينونة والزمن Sein und Zeit ص 307.

[5]- BT, p. 308. Heidegger's original is "einzig von ihm selbst her… übernehmen" which means "taken over by [Dasein] itself exclusively". The M.R translation is idiomatically quite correct in using "alone".

[6]- Alone.

[7]- Isolated.

[8]- John Macquarrie.

[9]- An Existentialist Theology (hereafter cited as ET) (London, 1955), p. 118.

[10]- John Wild.

[11]- The Challenge of Existentialism (hereafter cited as CE) (Bloomington, 1959), p. 82.

[12]- Ibid., p. 108.

[13]- Calvin O. Schrag.

[14]- Existence and Freedom (hereafter cited as EF) (Evanston, 1961), p. 108.

المضمار نفسه يقول الأب دمسك: «كلَّما تقدَّمنا بثبات نحو الموت كلَّما رأينا بصورة أوضح جوانب الوحدة التي يتميَّز بها الـ **دازاين** في وجوده - حتَّىٰ - الموت. يكشف هذا التقدُّم أنَّ كلَّ كينونة - مع الكينونات الأُخرىٰ... تتلاشىٰ في محضر الموت»[1]. أمَّا اللَّاهوتيُّ الكاثوليكيُّ لاديسلاوس بوروس[2] - وهو من تلاميذ هايدغر فيقول: -: «يجب علىٰ كلِّ واحدٍ منّا أنْ يقبل الموت بمفرده حتمًا»[3]، ويرىٰ مياكل غلفن[4] أنَّ تحليل هايدغر لـ «وجوديَّة الـ **دازاين** يُبيِّن لنا... أنَّني سأموت موتي لوحدي»، وأيضًا عندما يصبح وعيي مدركًا للموت فإنَّه يُصوِّر لي أنَّني سأموت في الواقع، وأنَّني عندما أموت سأموت وحيدًا[5]. ومن جانبه يقول ج. غلن غراي[6] - وهو من السبّاقين للدفاع عن هايدغر في الولايات المتَّحدة -: أن «الموت لا يُشارَك، هو أكثر إمكانات الحياة عزلةً وانفصالاً، وهذا ما يجعله الأمر الحقيقيَّ الأشد أهمّيَّةً»[7].

يضيف متحدِّثًا بيقين نابع من تجربة شخصيَّة مستفيضة: «أنا أموت بمفردي دائمًا»[8]. والظاهر أنَّ ثمَّة شيئًا معقولاً جدًّا حول مدَّعىٰ أنَّ الإنسان سيموت وحيدًا. فقد أورده جمعٌ من أكثر الفلاسفة انتقادًا لفلسفة هايدغر في مجالات مختلفة. كما لاحَظَه آخرون لم يسمعوا به، واعتبروه أمرًا بديهيًّا. زيادة على ذلك يرى مارجوري غرن[9] في دراسة مهمَّة جدًّا له أكثر فيها من الثناء عليه حول هذه المسألة: «أنَّ كلَّ إنسان يواجه الموت وحيدًا بذهول وعجز»[10]. وتعليقًا على ذلك يقول ليونار برنشتاين[11] حديثًا في خطبة جنائزيَّة لجني توريل[12] نجمة الميزو سوبرانو المتميِّزة أنَّها «عرفت أنَّ الولادة والموت فعلان فرديّان، خاصّان إلىٰ حدٍّ مؤلم، وغير قابلين للمشاركة»[13].

بيد أنَّ السؤال الذي يُسأل بإزاء هذا الاعتقاد ليس فقط (هل هذا صحيح؟)، فالحكم بصحَّة أيِّ قضيَّة يمكن أنْ يتمَّ من خلال تعريفات تتلاءم معها. لذا ينبغي أن يُطرح السؤال علىٰ الشكل التالي: هل هذا الاعتقاد صحيح؟ بمعنىٰ أنَّه يُشكِّل اكتشافًا أو علمًا مهمًّا. قبل الإجابة يجب التنبيه إلى أنَّ

---

[1]- BMD, p. 32.

[2]- Father Ladislaus Boros.

[3]- The Moment of Truth (hereafter cited as MT) (London, 1965), p. 1.

[4]- Michael Gelven.

[5]- ACommentary on Heidegger's Being and Time (hereafter cited as CBT) (New York, 1970), pp.51 - 150.

[6]- J. Glenn Gray.

[7]- 'The Problem of Death in Modern Philosophy' (hereafter cited as PD) in N. A. Scott, Jr. (ed.), The Modern Vision of Death (Richmond, Virginia, 1967), p. 55.

[8]- Ibid., p. 56.

[9]- Marjorie Grene.

[10]- Heidegger(London, 1957), p. 45.

[11]- Leonard Bernstein.

[12]- Jennie Tourel.

[13]- New York Times, Dec. 9, 1973.

هايدغر وأتباعه قدموا لنا قضيَّة كلّيَّة، وبمعنىٰ ما ضروريةً. فهم لا يكتفون بالتأكيد على ما لا جدال فيه فحسب، أي أنَّ بعض البشر أو كثيراً منهم يموتون وحدهم، بل أنَّ ذلك ينطبق علىٰ جميع البشر وفي كلِّ الأعمار، وأنَّه يصحُّ بالضرورة علىٰ الجميع لمجرَّد قابليَّتهم للموت. سوف أبدأ ملاحظاتي الانتقاديَّة بالإشارة إلىٰ أنَّ قضيَّة كلِّ البشر يموتون وحدهم يمكن أنْ تُفهَم بثلاثة معانٍ واضحة بشكل معقول، وأنَّها كاذبة تمامًا في كلِّ هذه المعاني. لعلَّ أكثر تلك المعاني وضوحًا، أنَّ الشخص يموت وحيدًا إذا لم يكن معه إنسان آخر عندما يموت. والإنسان الذي يقود سيّارة بنفسه ويتعرَّض لنوبة قلبيَّة مميتة سيموت وحيدًا بهذا المعنىٰ.

ثمَّة معنىٰ آخر عن شخص يموت وحيدًا أو في عزلة عن غيره، حتَّىٰ لو كان البشر الآخرون معه جسديًّا خلال لحظاته الأخيرة. بهذا المعنىٰ يموت الشخص وحيدًا إذا كان معزولًا علىٰ المستوىٰ النفسيِّ، أي إذا لم يكن للبشر الموجودين حوله أيُّ روابط عاطفيَّة قويَّة معه. في هذا الصدد تتحدَّث عالمة النفس اليزابيث كيبلر روس[1] وغيرها من علماء النفس بشكل مؤثِّر عن معاناة المرضىٰ الذين يموتون، وكيف يعانون، بالإضافة إلىٰ عذابهم الجسديِّ، من الوحدة الشديدة نتيجةً للبرودة العاطفيَّة للممرِّضات والأطبّاء، وعدم إظهار الصدق والانفتاح من الأقارب. ومن المهمِّ التأكيد علىٰ أنَّه بينما يموت عدد كبير من الناس وحدهم بهذا المعنىٰ الثاني، إلَّا أنَّهم ليسوا جميعًا كذلك؛ ومن المؤكَّد أنَّه ليس من الضروريِّ، لا بالمعنىٰ المنطقيِّ ولا بمعنىٰ الضرورة الواقعيَّة، أنْ يحصل هذا لجميع الناس.

ولنضرب مثالًا معروفًا، عن أحوال الفيلسوف الإنكليزيِّ دايفيد هيوم الذي لم يكن في يوم أكثر رضىً من الأشهر الستَّة الأخيرة من حياته عندما علم أنَّه كان يحتضـر. ولم يشعر أبدًا بالقرب من أصدقائه أكثر ممَّا كان عليه خلال هذه الفترة، لقد بقي مهتمًّا بالعالم من حوله، بما في ذلك أحدث المنشورات في مختلف المجالات. يكتب هيوم في سيرته الذاتيَّة المختصرة عندما اقترب الموت منه فيقول. «لو أُتيح لي اختيار فتره من حياتي لأعيشها مرَّة أُخرىٰ، فإنَّني سأتمنّىٰ الرجوع إلىٰ هذه الفترة الأخيرة»[2].

ثمَّة معنىٰ آخر لموت الناس وحيدين في بعض الأحيان، حيث الموت وحيدًا يقابل الموت معًا

[1]- Elizabeth Kiibler Ross.

[2]- 'My Own Life,' reprinted in Norman Kemp Smith (ed.), Hume's Dialogues Concerning Natural Religion (Edinburgh, 1935), p. 239. The same volume contains the remarkable letter from Adam Smith to William Strahan describing Hume's last month. Both these documents are also reprinted in J.Y.T. Greig (ed.),The Letters of DavidHume, vol. II (Oxford, 1932).

وليس الموت غير وحيد. يروي أ. ألفارز[1] في كتاب الإله المتوحِّش[2] قصَّة جاك فاشيه[3] الشاعر الشابّ الغريب، الذي كان له تأثير حاسم علىٰ أندريه برتون[4]، مؤسِّس السـوريالِيَّة. كان فاشيه مقتنعًا بالعبث المطلق في الحياة، واتَّخذ ما يُسمّيه المزاج مبدأً توجيهيًّا له (تعبير ساخر خبيث ومدمِّر للذّات). فقد جُنِّد في الجيش الفرنسـيِّ خلال الحرب العالميَّة الأُولىٰ، وأثناء وجوده في الجبهة بعث رسالة من الجبهة قال فيها: إنَّه يرفض أنْ يموت في الحرب، وأضاف: سأموت عندما أُريد أنْ أموت، ثمّ سأموت مع أحد آخر. الموت في وحدة مملٌّ، أُفضِّل الموت مع واحد من أفضل أصدقائي[5].

وفي عام 1919، عندما انتهت الحرب، تُوفيّ فاشيه وفقًا لهذه المواصفات. دعا اثنين من الأصدقاء لأخذ رحلة أفيون معه. وأعدَّ جرعة مميتة لأصدقائه المطمئنِّين إليه ومثلها جرعة مميتة لنفسه. وهكذا لم يمت وحيدًا[6].

ولا بدَّ من الإشارة إلىٰ أنَّ فاشيه[7] كان يستخدم تعبير الموت وحيدًا بطريقة مربكة وغير صحيحة. فلو أُنقِذَ صديقاه، لكان من الصواب القول: أنَّه مات وحده من بين الثلاثة، لا أنَّه مات وحيدًا. عبارة وحده في هذا السياق تعني فقط، حالُه هو وليس الموت. ومع ذلك سنتنازل عن هذه النقطة ونقبل طريقة فاشيه في الحديث ونعتبرها معنىً ثالثًا يمكن للمرء أنْ يتحدَّث فيه عن البشـر عندما يموتون وحدهم. ومن الواضح - كما بالنسبة إلى المعنيين الآخرين - أنَّ بعض البشر يموتون لوحدهم بهذا المعنىٰ، وبعضهم لا يموتون لوحدهم. فإذا أُعدم واحد فقط من عشرة رهائن، فإنَّه يموت لوحده. أمَّا إذا أُعدموا جميعهم أو عدد منهم في الوقت نفسه، فإنَّهم لا يموتون وحيدين. وكما مرَّ أنَّ التأكيد علىٰ أنَّ البشـر يموتون وحيدين قضيَّة كاذبة.

وتجدر الإشارة إلىٰ أنَّ أنصار هايدغر لا يسندون قضيَّتهم: كلُّ البشـر يموتون وحيدين علىٰ عمليّات مراقبة تفصيليَّة للحظات البشر الأخيرة. وعندما يستخدمون عبارة: مات وحيدًا، يمكننا أنْ نستنتج أنَّ شخصًا مات وحيدًا، من مجرَّد موته. ولا حاجة للتحقيق في ظروف موته. وإذا تُوفيّ محاطًا ببشر آخرين تربطه بهم علاقة عاطفيَّة عميقة، فإنَّه مات وحيدًا لمجرَّد أنَّه مات. وهذا يعطينا

---

[1]- A. Alvarez.

[2]- The Savage God.

[3]- Jacques Vache.

[4]- Andre Breton.

[5]- The Savage God (London and New York, 1971), p. 190.

[6]- كان فاشيه في الثالثة والعشرين من عمره عندما انتحر. هناك معلومات مهمَّة جدًّا عنه في:

Hans Richter, Dada (London and New York, 1965), on which Alvarez's account is based and in Maurice Nadau, The History of Surrealism (London, 1968).

[7]- Vaché.

فكرة عمَّا حدث هنا. أُعيد تعريف الموت وحيدًا ليصبح مساويًا منطقيًّا لـ الموت. يستعمل أتباع هايدغر عبارة وحيد (أو بالأحرىٰ كما يجب أنْ تُفسَّـر لو أنَّ قضيَّتهم ليست صريحة الكذب)، كما لو كان من المستحيل منطقيًّا أنْ يموت الشخص ولا يكون موته وحيدًا. وإذا كان لعبارة: وحيد دلالة إضافيَّة، فسيكون من الممكن وصف كيف تكون الحال بالنسبة إلى شخص يموت من دون أنْ يموت وحيدًا؛ ولكن عندما يستعمل أتباع هايدغر هذه العبارات، لا يكون هذا الوصف ممكنًا. تشير الطريقة التي يكتبون بها إلىٰ أنَّ العلاقة المنطقيَّة بين الموت والموت وحيدًا كالعلاقة بين الموت والموت فقيراً أو الموت والموت في السرير. واضح في كلا الحالين أنَّ هناك علاقة توليفيَّة: الموت في فقر يعني أكثر من الموت، والأمر نفسه ينطبق علىٰ الموت في السرير. والأمر نفسه ينطبق علىٰ الموت وحيدًا بأيٍّ من المعاني الثلاثة المذكورة سابقًا، ولكنَّه لا ينطبق علىٰ الموت وحيدًا كما يجب علىٰ أتباع هايدغر استعمال هذه العبارات إذا لم تكن قضيَّتهم: كلُّ الناس يموتون وحيدين كاذبة. وكما يلتزمزن باستخدام هذه العبارات، فإنَّ العلاقة بيت الموت والموت وحيدًا تشبه العلاقة بين الأب والأهل. والنتيجة التي نصل إليها بنقاشنا: أنَّ تعبير الهايدغريِّين يُفسَّر بأنَّه يقول شيئًا مثيراً للاهتمام، ثمّ يتَّضح أنَّه كذب، أمَّا إذا فُسِّر بطريقة بدا فيها صحيحًا، فلن يكون أكثر من طريقة خطابيَّة تُؤكِّد علىٰ الحقيقة الشائعة بأنَّ كلَّ الناس سيموتون ذات يوم. لا تظهر تفاهة عقيدة هايدغر فورًا للجميع، فقط لأنَّ الموت وحيدًا - بأيٍّ من المعاني المألوفة - لا يعني أكثر من الموت، ولأنَّ القارئ لم يعرف (وربمَّا الهايدغريُّون أنفسهم لم يدركوا) أنَّ عبارة (وحده) اكتسبت دلالة جديدة.

خوائيَّة الاعتقاد الهايدغريّ

إنَّ خواء المعتقد الهايدغريِّ، والطابع الزائف الذي قد يُوصَف به حقًّا، يتَّضحان بوجهٍ خاصٍّ عندما يتأمَّل المرء أنَّ له في الظاهر آثارًا عمليَّة، لكنَّه في الواقع ليس له أيَّ أثر. دعونا نفترض أنَّ مؤمنًا بهذه النظريَّة لديه زوجة وأولاد مرتبط بهم بالطريقة نفسها التي يرتبط فيها غير الهايدغريِّين بزوجاتهم وأولادهم. ولنفرض أنَّه تعرَّض لحادث وأدخل المستشفىٰ، وبات لديه سبب للاعتقاد بأنَّه سيموت قريبًا. فلو استخدمت كلمة وحيد بأيٍّ من معانيها المألوفة في القضيَّة الهايدغريَّة: كلُّ البشـر يموتون وحيدين، وإذا كانت القضيَّة صحيحة، إذًا لا ينبغي أنْ يُرسِل الهايدغريُّ بطلب عائلته، لأنَّ هذا سيكون عديم الجدوىٰ نظرًا لأنَّ جميع البشر يموتون وحيدين. لكنَّه من الناحية العمليَّة، سيرُسِل في طلب زوجته وأولاده تمامًا كأيِّ إنسان آخر عاديٍّ عاقل. وبعبارة أُخرىٰ: إن قبول المعتقد يتوافق تمامًا مع كلتمايزعادي بين الموت وحيدًا وعدم الموت وحيدًا؛ والهايدغريُّ، إذا كان لديه دوافع بشريَّة عاديَّة، لن يكون وحده ولكن مع الذين يحبهم.

قد يعترض بعض القرّاء علىٰ الانتقادات الواردة أعلاه، أي رغم أنَّه ليس كلُّ إنسان قد يموت وحيدًا، غير أنَّه صحيح، وصحيح بالضرورة أنَّ في الموت كلُّ إنسان يكون وحيدًا. إنَّها المفردات نفسها التي استعملها مترجمو كتاب «الكينونة والزمن» في الهوامش التوضيحيَّة التي أكَّدوا فيها، ورأوا علىٰ ما يبدو أنَّ الـ «**دازاين**» في الموت ينفصل عن العلاقات بالآخرين[1]. سيبدو هذا التعقيب معقولاً لجميع الواقعين تحت تأثير صورة الموت بوصفه نوعًا من النوم أو الرَّاحة. يتحدَّث براوست[2] عن عجز العقل، عندما يتأمَّل الموت علىٰ تصور شيء غير الحياة. وأنا أعتقد أنَّه صحيح أنَّنا أحيانًا نعرف تمامًا أنَّ الموتىٰ ليسوا نائمين أو مرتاحين (أي أحياء ولكن بطريقة سلبيَّة جدًّا)، فإنَّنا أحيانًا أُخرىٰ نُفكِّر فيهم بأنَّهم نائمون في القبر أو أنَّهم ما زالوا موجودين في مسكن مظلم[3]. فإذا كان الميِّت نائمًا بالفعل في قبره، فمن المفترض أنْ يكون وحيدًا، لأنَّه لا يوجد أحد معه في قبره، والأهمّ لأنَّه خلافًا للأحياء سيكون عاجزًا عن التواصل مع أيٍّ كان. وبقليل من التفكير الرصين سيتبيَّن أنَّ هذا التعليق سخيف جدًّا. فالأموات ليسوا في حالة راحة أو نوم، لأنَّ النوم والراحة حالات يتَّصف بها الأحياء. وإذا وصفنا شخصًا بأنَّه وحيد، فيفترض أنَّه حيٌّ؛ ورغم أنَّ وصف شخص يحتضر بأنَّه وحيد هو قول معقول، إلَّا أنَّ وصف الإنسان الميِّت أنَّه وحيد لا معنىٰ له. فالموتىٰ ليسوا وحيدين وليسوا غير وحيدين لنفس السبب وهو أنَّ البشـر ليسوا أرقامًا منطقيَّة ولا غير منطقيَّة.

يأتي السؤال التالي: هل يمكن الكلام عن عدم قابليَّة الموت للتحوُّل؟

الموت ليس إمكانيَّة الـ «**دَازاين**» اللَّاعلائقيَّة فقط. بل هو أيضًا إمكانيَّته القصوىٰ. يقول هايدغر: «مع الموت يقف الـ **دازاين** أمام نفسه في إمكانيَّته القصوىٰ»[4]. هذه الإمكانيَّة القصوىٰ واللَّاعلائقيَّة هي في الوقت عينه نهاية قصوىٰ. أقصىٰ ما يُملَك هي الكلمة التي يستعملها قاموس M-R لترجمة الكلمة الألمانيَّة eigenst والتي تعني حرفيًّا أكثر ما لديّ[5]. فإذا تبنَّينا ترجمة حرفيَّة تمامًا فإنَّ هايدغر يُؤكِّد أنَّ موتي هو خاصَّتي أكثر من أيِّ شيء آخر، وليس مفاجئًا أنْ نرىٰ الأب دمسك يقول لنا: إنَّ الموت هو أكثر احتمالات الوجود الإنسانيّ حميميَّة[6]. وتحدَّث غلن غراي[7] عن الموت باعتباره الإمكانيَّة... الأكثر خصوصيَّة[8] وهو أكثر التجارب حميميَّة علىٰ الإطلاق[9].

---

[1]- الكينونة والزمن **Sein und Zeit** ص **249**.

[2]- **Proust.**

[3]- لمناقشة تفصيليَّة لهذه الفكرة واضحة في أقوالنا عن الموت انظر القسم الأوَّل من مقالي المذكورة أعلاه.

[4]- الكينونة والزمن **Sein und Zeit** ص **294**.

[5]- **Most my own**

[6]- **BMD, p. 37.**

[7]- **Glenn Gray**

[8]- **PD, p. 56.**

[9]- **Ibid., p. 62.**

يخلط هايدغر وتلاميذه بين الموت وأفكارنا وعواطفنا المرتبطة بالموت. إنَّ أفكاري وعواطفي المرتبطة بالموت هي بالفعل خاصَّتي، لكن من الصعب معرفة لماذا ينبغي اعتبارها تخصُّني أكثر من رغبتي في أنْ أَحِبَّ وأنْ أُحَب أو رغبتي بالتمتُّع بالحياة. يبدو هايدغر تحت تأثير سحر صورة غامضة يحاول فرضها علىٰ قُرّائه أيضًا. إنَّها صورة للموت تتخفّىٰ عميقًا داخل كلِّ فرد منّا. غير أنَّ هذا ليس كلُّ ما يفعله. إنَّ قضيَّة أنَّ الموت هو إمكاننا الأقصىٰ الذي نملكه يبدو اختصارًا لشيء دافع عنه بحماسة سابقًا في الفصل نفسه، أي أنَّ الموت كما عبرَّ عنه أتباعه تكرارًا، غير قابل للتحوُّل. فلقد أشار هايدغر قبل استعمال عبارة ownmost للمرَّة الأُولىٰ بعشر صفحات إلىٰ مثل هذه الإمكانيّات التي يمكن أنْ يُمثِّل فيها دازاين، دازاينًا آخر:

لا جدال في أنَّ تمثُّل دازاين بآخر ينتمي إلىٰ إمكانيّات الوجود في الوجود - مع - بعضنا في العالم. في مجال الاهتمام اليومي تحصل منفعة ثابتة ومتعدِّدة من هذا التمثُّل. فعندما نذهب إلىٰ أيِّ مكان، أو إذا كان لدينا ما نُقدِّمه يمكن أنْ نكون ممثِّلين بأحد في مجال تلك البيئة التي نهتمُّ بها عن كثبٍ.

التمثيل ليس ممكنًا فحسب، بل هو أيضًا مكوِّن لوجود بعضنا مع بعض. هنا يمكن ويجب لأيِّ دازاين - ضمن حدود معيَّنة - أنْ يكون دازاينًا آخر.

من ناحية أُخرىٰ - في حال الموت - فإنَّ هذا التمثيل أو الاستبدال ليس ممكنًا، غير أنَّ هذه الإمكانيَّة للتمثيل تتبدَّد تمامًا إذا تعلَّقت المسألة بتمثيل إمكانيَّة الوجود هذه التي توصل الـ دازاين إلىٰ نهايته.

مجدَّدًا نشير إلى هذه الأطروحة: الموت... في الأساس خاصَّتي ولا يمكن لأحد أنْ يُمثِّلني فيه. الموت دائمًا خاصٌّ بصاحبه[1]. وهذا ما لاحظه بالضَّبط أتباع هايدغر. فالموت بالنسبة إلى جون وايلد «ليس وظيفة قابلة للاستبدال أو التبادل». وكما يقول غلين غراي: «الموت لا يُشارَك... إنَّه دائمًا وأبدًا خاصَّتي... لا يمكن أنْ يحلَّ أحد مكاني في الموت... كما لا يمكنني - بمعنىً ما - أنْ أموت من أجل غيري». وكتب شراغ يقول: «الموت يخصُّني بشكل ثابت، وبالتالي غير قابل للتحويل... وعندما يتعلَّق الأمر بالموت لا يمكن تبادل الأدوار». أما غلفن فيقول «إذا كان من شيء خاصّ بي، فهو موتي... كلُّ إنسان يموت موته الخاصَّ. لا يمكن أنْ يشارك به أحد أو يستولي عليه أحد».

ومن المهمِّ أنْ نشير إلىٰ خطأ القول: أنَّ المرء لا يستطيع - دائمًا أو من حيث المبدأ - أنْ يجعل شخصًا آخر يموت مكانه. في قصيد شيلر نقرأ ما يلي: حكم الطاغية ديونيس علىٰ موروس بالإعدام

[1]- الأصل الألماني هو (Tod ist je nur eigener)، وقد ترجمها /.ر. خطأً إلىٰ (Death is just one's own).

صلبًا بتهمة محاولة اغتياله. توسَّل موروس أنْ يُمهِل ثلاثة أيّام حتَّىٰ يُزوِّج شقيقته. وافق ديونيس علىٰ شرط أنْ يحتجز أفضل أصدقاء موروس رهينة. وإذا لم يعد موروس في الوقت المحدَّد فإنَّ صديقه يموت بدلاً منه. لقد حصلت قضيَّة واقعيَّة شبيهة مثيرة للاهتمام شارك فيها توماس باين أثناء الثورة الفرنسيَّة. كان باين منفيًّا من إنكلترا، وحينها طلبت الحكومة كفالة لتوقيفه، وأطلقت حملة خبيثة من الافتراء والتحريض. رغم حكم الإعدام الذي صدر بحقِّه في ما بعد، فإنَّه كان في المراحل الأُولىٰ من الثورة عضوًا مؤثِّرًا في الجمعيَّة التأسيسيَّة. وكان قد حكم علىٰ رجل الإنكليزي يُدعىٰ زكريّا ويلكس في اعتداء آخر، طلب المساعدة من باين، رغم أنَّ (باين يجب أنْ يكره ويمقت اسم أيّ رجل الإنكليزي؛ لأنَّه ضُرِبَ، وأُهين، واضطُهِدَ، وافتُري عليه) علىٰ يد الحكومة الإنكليزي. طلب باين إطلاق صراح ويلكس، واحتُجِزَ رهينة بدلاً منه، بينما غادر ويلكس إلىٰ إنكلترا. وهو لم يستغلّ ثقة باين، بل رجع في الوقت المحدَّد حاملاً دليل براءته. في هذه الحالات لم يمت الرهائن في الحقيقة بدلاً من الناس الذين نابوا عنهم. لكنَّهم كانوا معرَّضين لذلك بسهولة. في المبدأ إنَّ استبدالاً من هذا النوع ممكن تمامًا، وبالمعنىٰ الذي شرحناه للتوِّ لا شكَّ في أنَّ بعض البشر ماتوا في بعض المناسبات بدلاً من بشر آخرين.

لقد كان هايدغر مدركًا لهذه الحقائق، لكنَّه يستبعدها لعدم علاقتها بفكرته: لا يمكن لإنسان أنْ يجعل غيره يموت مكانه. طبعًا يمكن لإنسان أنْ يذهب للموت من أجل غيره. لكن هذا يعني دائمًا التضحية بالنفس من أجل الآخر في قضيَّة محدَّدة. لكن هذا الموت لأجل لا يمكن أنْ يعني بتاتًا أنَّ الآخر قد أُرجع من موته. الموت شيء يجب أنْ يقبله كلُّ دازين علىٰ نفسه عندما يحين وقته. لكن الموت في جوهره وفي جميع الأحوال، عندما يكون، يكون خاصَّتي.

من الواضح أنَّ هايدغر يُنهي بقضيَّتين غير متأثِّرتين بحدوث أو بإمكان نوع الاستبدال الذي ناقشناه في الفقرة السابقة. القضيَّة الأُولىٰ: لا أحد يموت موت غيره، أي إنَّ الموت الذي يموته الشخص هو موته هو وليس موت أيِّ إنسان آخر. والقضيَّة الثانية تقول: رغم أنَّ الإنسان يمكن أنْ يُضحّي بنفسه من أجل غيره، لكنَّه لا يستطيع علىٰ الإطلاق أنْ يُرجِعه من موته، أي يمنعه من الموت.

إنَّ قضيَّة هايدغر لا تُؤكِّد أيَّ حقيقة أكثر من حقيقة أنَّني سأموت، إنَّها تُؤكِّد هذه الحقيقة، وبالتالي ليست اكتشافًا أو استشـرافًا أو مساهمةً في فهمنا لأيِّ شيء.

هناك تفسير سهل نسبيًّا لسبب ارتقاء مبدأ قابليَّة التحوُّل الهايدغريِّ إلىٰ أكثر من القضيَّتين التافهتين اللتين ناقشناهما للتوِّ. يبدو أنَّهما سيصلان إلىٰ ما هو أكثر، إذ بعد الإقرار بأنَّ الادِّعاء الأوَّلي بعدم قابليَّة التحوُّل زائف بالمعنىٰ الذي فُسِّر فيه طبيعيًّا، لذلك احتفظ هايدغر باللُّغة

الأصليَّة. دعنا نُميِّز بين القضايا الثلاث التالية:

- في مسألة الموت لا يمكن أنْ يحلَّ إنسان محلَّ آخر.

- الموت الذي يموته الشخص هو موته هو، ويجب أنْ يكون موته.

- في النهاية لا يستطيع أحد أنْ يُنقِذ أحدًا من الموت.

خلافًا لـ (2) و(3)، القضيَّة (1) كما تُفهَم بشكلٍ عامٍّ ليست تافهة. إنَّها تطرح ادِّعاءً مثيراً للاهتمام، الادِّعاء بأنَّ التمثيل أو الاستبدال - وخلافًا لمسائل أُخرىٰ كإلقاء المحاضرات أو أداء دور في الأُوبيرا أو معالجة مريض أو الدفاع عن موكِّل في قضيَّة جرميَّة - ليس ممكنًا عندما يتعلَّق الأمر بالموت. عمليًّا هذا يعني أنَّ المحاضر يقدر - علىٰ الأقلّ من حيث المبدأ - أنْ يجعل شخصًا آخر يحلَّ مكانه، أي أنَّ المغنين، والأطبّاء، والمحامين يمكن أنْ يحصلوا علىٰ بدائل لوظائفهم المهنيَّة الخاصَّة بهم، لكن يستحيل - من حيث المبدأ - أنْ نجعل شخصاً يموت بدلاً من شخص آخر. ولو كان هذا الادِّعاء صحيحًا، لكان الأكثر إثارةً للاهتمام، لكنَّنا رأينا أنَّه ليس صحيحًا. فهايدغر يعترف بذلك وينتقل إلىٰ (2) و(3). غير أنَّه يحتفظ باللغة الأصليَّة ممَّا يُوحي خطأً بأنَّ القضيَّة (1) صحيحة.

النتيجة من هذا النقاش أنَّ مبدأ عدم قابليَّة التحوُّل يكون صحيحًا بمعانٍ تافهة، ويكون كاذبًا بمعنىٰ يكون فيه مثيراً للاهتمام. ويبدو في الوقت عينه صحيحًا ومثيراً للاهتمام - فقط - إذا لم يلحظ التحوُّل الذي وصفته بوضوح.

الوجود – نحو – الموت

كلُّ الوجوديِّين الكبار الذين كتبوا عن الموت (باستثناء ملحوظ لسارتر) يعارضون تعليمهم الخاصَّ بالموضوع الذي يُسَمُّونه النظرة الخارجيَّة للموت. إنَّها نظرة يتَّفق عليها الفلاسفة الوثنيُّون القدماء، وهيغل وتلاميذه، والفلاسفة الطبيعيُّون في القرن العشـرين، وأيضًا معظم الفلاسفة عندما يُفكِّرون بالموت. فكما رأىٰ شراغ الموت وفقًا لهذا الرأي «ظاهرة موضوعيَّة وخارجيَّة»، وإنَّه «مجرَّد حدث مادّيّ طبيعيّ يتعرَّض له الإنسان في نهاية حياته». تتمثَّل هذه النظرة الخارجيَّة عادةً بالقول الشهير لأبيقور: (عندما أكون لا يكون الموت، وعندما يكون الموت لا أكون). وهو متضمِّن في المفهوم العامِّ لـ «الموت بوصفه ما يحصل عندما يتناول المرء جرعة من حامض الكبريت، أو عندما يغرق، أو عندما ينام في مكان امتلأ هواؤه بغاز الفخم». في وجهة النظر الخارجية هذه خلل أساسيّ. يقرِّر شراغ أنَّ (الوثنيَّة الكلاسيكيَّة لم تصل مطلقًا إلىٰ فهم أصيل لحقيقة الموت الوجوديَّة). بل إنَّها «تفشل - كالمثاليَّة الموضوعيَّة الهيغليَّة - في تحقيق (التغلغل الذاتيّ) للموت.

والشيء نفسه يصحُّ عن المفهوم اليوميّ للموت. في فهمنا العامِّ اليومي البسيط، ما يشتمل عليه الموت من الناحية الوجوديَّة لا يمكن أنْ يكون شفّافًا».

إنَّ اعتبار الموت حقيقة خارجيَّة لا يسفر عن فهم سليم. ففرضيَّة أنَّه مجرَّد حدث مادّيٍّ وطبيعيٍّ هي فرضيَّة كاذبة. ومقابل هذه النظرة الخارجيَّة نحن متأكِّدون أنَّ كيركغارد وهايدغر وغيرهما من الوجوديِّين توصَّلوا إلىٰ فهم سليم للموت. توصَّلوا إلىٰ هذا من خلال جعل الموت داخليًّا، أي من خلال إظهار أنَّ الموت «إمكان داخلي للنفس البشريَّة، إنَّه انفعال أو قلق».

«يوافق الفلاسفة الوجوديُّون علىٰ إمكان تفسير الموت أو وصفه بأنَّه بنية قواميَّة في الطابع الإنسانيِّ الخاصِّ».

اختصَّ هايدغر بتطوير أنطولوجيا الموت التي تدخلن فيها الموت بوصفه شكلاً من أشكال الوجود بحدِّ ذاته. يقول الأب دمسك: إنَّنا - بفضل هايدغر - نُدرك أنَّ الموت بنية وجوديَّة داخليَّة لوجود الـ **دازاين**. إضافةً إلىٰ أنَّه ليس حدثًا يضع نهاية لحياة الإنسان... إنَّه لا يكمن في المستقبل، بل في الـ هُنا والآن، يُؤثِّر في كلِّ فعل يُدرَك فيه الوجود. الموت بوصفه وجوديًّا هو... صيغة وجوديَّة، طريقة كينونة، وفي الحقيقة إنَّه الطريقة التي يوجد فيها الـ**دازاين**. ووفقًا لـويليام باريت الموت ليس حقيقة عامَّة تظهر هناك في العالم؛ إنَّه شيء يحصل في داخل وجودي الخاصِّ. يكتب غلن غراي: إنَّه ظاهرة داخل الحياة، ويضيف أنَّه إذا أدخل في الحياة بطريقة شخصيَّة سيحدث ثورة في سلوكنا.

تُعتَبر هذه «الاستدخاليَّة» للموت ذات أهمّيَّة كبرىٰ، فهي بهذا الاعتبار تشكِّل أحد الأسباب المتعلِّقة بـ الصعوبات المنهجيَّة التي نواجهها عندما نحاول تحديد طبيعة الموت. وللإجابة عن سؤال: ما هو الموت؟ يدعونا مكواري إلى وجوب الاستعمال الذهني، «لنفس المنهج الفينومينولوجيِّ الذي يستعمله هايدغر في باقي التحليل الوجوديّ»[1]. فقد أسفر هذا المنهج عن نتائج مهمَّة في دراسة الفهم، والطباع، والكلام، والقلق، والاهتمام، والتعاطف. ويمكن أنْ تستكشف هذه البُنىٰ فينومينولوجيًّا في عيشنا من خلالها، لكن إذا كان الموت كما اعتقد أبيقور، أي إذا كان واقعًا خارجيًّا، لا نستطيع اكتشافه فينومينولوجيًّا طالما أنَّنا لن نكون موجودين للقيام بأيِّ اكتشاف عندما يحدث. وقد أكَّد الأب بوروس هذه الصعوبات المنهجيَّة. فهو يرىٰ أنَّ «التفكُّر الفلسفيَّ في الموت لم يثمر لأنَّنا لم نُجرِّب الموت مباشرةً»، فمراقبة الناس الآخرين لن تُخبرنا ما هو الموت. لأنَّ ما نراه:

«عندما نراقب إنسانًا علىٰ فراش الموت ليس بالتأكيد الحقيقة الداخليَّة الموت، إنَّه الوجه الخارجيّ للموت».

[1]- **Studies in Christian Existentialism (hereafter cited as SCE), p. 51.**

كما أنَّنا لا نستطيع أنْ نأمل (تلقّي إجابة حاسمة كاشفة من أُناس كانوا قريبين من الموت، أو الذين تركهم الموجودون حولهم للموت). لا نستطيع أنْ نحصل علىٰ جواب حاسم أو كاشف من أُناس كانوا قريبين من الموت، لأنَّهم كانوا قريبين من الموت فقط، وبالتالي لم يختبروا الموت الذي يختلف عن القرب من الموت. وللسبب عينه لا يمكننا أنْ نحصل علىٰ أيِّ (مساعدة من المعنيِّين مهنيًّا بالذين يموتون). رغم أنَّ «كثيراً منهم قد اكتسب رؤىٰ عميقة حيال الصراع مع الموت». لكن لحسن الحظِّ استطاعت (الفلسفة الحديثة أنْ تتقدَّم كثيرًا) من أجل التغلُّب علىٰ هذه الصعوبات. وليس مستغربًا أنَّ الفلسفة الحديثة التي أشار إليها الأب بوروس هي التي شرحها مارتن هايدغر في كتاب الوجود والزمن. بيَّنت هذه الفلسفة أنَّ «الموت وسيلة أساسيَّة للعيش»، وأنَّ «الموت يكون حاضرًا في كلِّ فعل وجود من البداية». ويقول مكواري ما يشبه ذلك: إنَّ «الوجود هو الموت، وإنَّ الموت حاضر عندنا، وبطريقة ما، إنَّه في متناولنا». إنَّه (بمعنىٰ ما، موجود في الحاضر بالفعل) وبالتالي «يمكن للمحلِّل الوجودي أنْ يصل إليه... من خلال التحقيق». بهذه الطريقة نكون قد تجاوزنا الصعوبة المنهجيَّة الأوّليَّة، لأنَّه بوصفه شيئًا حاضرًا في كلِّ فعل وجود ويمكن الوصول إليه في الحاضر، إذًا يمكن اكتشاف الموت فينومينولوجيًّا.

كيف يمكن تحقيق فعل دخلنة الموت؟ وكيف نُبيِّن أنَّ الموت ليس خارجيًّا، بل داخلي وأنَّه طريقة حياة؟ تمَّ الحصول علىٰ هذه النتيجة من خلال تحليل ما أُعلن أنَّه معانٍ مختلفة لكلمة نهاية، والمعاني المقابلة لـ الموت. يقول هايدغر: «ضروري أنْ نسأل بأيِّ معنىٰ - إذا وُجِدَ معنىٰ - يجب أنْ نفهم الموت بوصفه نهاية للـ **دازاين؟**».

للإجابة عن هذا السؤال لا بدَّ من مناقشة المعاني المختلفة لـ الانتهاء. لاحظ شراغ - الذي يغوص في التفاصيل أكثر من هايدغر - أنَّ (الانتهاء بشكلٍ عامٍّ يعني التوقّفُ)، غير أنَّه يضيف أنَّ التوقُّف عن الوجود له تغيُّرات مختلفة. يتَّضح أحد هذه التغيُّرات أو المعاني في المثل الذي ضربه هايدغر - توقف المطر. يضـرب شراغ مثل نهاية الصيف. هنا لدينا اختفاء - أنَّ الذي انتهىٰ هو المطر أو الصيف، وبالاصطلاح الهايدغري الخاصِّ لم يعد حاضرًا في المتناول. بمعنىٰ آخر الانتهاء يعني الإتمام. ينهي الفنّان عمله عندما يُتِمُّ رسمًا بآخر ضربة من فرشاته. وقد حصل تغيُّرٌ آخر للانتهاء من خلال حالات لا يمكن أنْ يستكمل العمل فيها، وبتعبير شراغ: «كما عندما يتوقَّف حفر قناة عندما يتبيَّن أنَّ التربة التي يجب أنْ تُحفَر فيها موحلة جدًّا».

وهناك مثل علىٰ تغيُّرٌ رابع عندما يستنفد شيء، مثلاً التزوُّد بالبنزين أو عندما نصل إلىٰ نهاية رغيف الخبز. يذكر هايدغر حالة أُخرىٰ مختلفة جدًّا عن كلِّ ما سُجِّل حتَّىٰ الآن. إذا وصلنا إلىٰ نهاية الطريق، فهذا لا يدلُّ علىٰ أنَّ الطريق اختفىٰ. وهذا يختلف عن البنزين الذي استنفذ، والخبز

الذي أُكِلَ، أو المطر الذي توقَّف، فالطريق ما زال موجودًا. يقول هايدغر:

«هذا الانتهاء لم يجعل الطريق يختفي، لكنَّه محدِّد لطريق كهذا الطريق الحاضر - في - متناولنا».

هناك حديث عن الإنجاز في هذه المرحلة. ليس واضحًا إذا كان يجب اعتبار الإنجاز معنىً جديدًا أو تغييراً في معنىٰ الانتهاء. فهايدغر يعتبر الإنجاز صيغة لما يُسمّيه fertigwerden التي يترجمها قاموس M-R بـالانتهاء، وهي تعني باللُّغة الألمانيَّة العاديَّة الإكمال. يقول: إنَّ «الإنجاز نوع من الإنهاء، ويقوم عليه». لكنَّهما - هو وشراغ - يصرّان - وهذا صحيح - علىٰ أنَّ الانتهاء بمعنىٰ الإكمال أو الإتمام لا يعني بالضـرورة الإنجاز. وكما يقول شراغ: «المشروع قد ينتهي بمعنىٰ أنَّه تمَّ ثم يُقيَّم باعتباره منجز أو غير منجز، كما عندما نقول: إنَّ الإنجاز انتهىٰ بشكل جيِّد أو انتهىٰ بشكل ضعيف».

موت الدَّازاين ومعنى النهاية

بأيٍّ معنىٰ من هذه المعاني يشكل موت الـ **دازاين** نهايته؟ الجواب: ليس بأيٍّ منها. إنَّ كثيراً من القُرّاء مطَّلعون علىٰ التمييز الأساسيِّ الذي يضعه هايدغر بين الـ **دازاين** من جهة، والكيانات الجاهزة في المتناول والحاضرة في المتناول من جهة أُخرىٰ. هذا التمييز شبيه بالتمييز بين الأشخاص والأشياء الموجود لدىٰ العديد من غير الوجوديِّين وهو يشبه إلىٰ حدٍّ كبير تمييز سارتر بين لذاته وفي ذاته. يمتلك البشر بعض الخصائص التي لا تملكها الجمادات والنباتات والحيوانات؛ ويُسمّىٰ البشر دازاين للدلالة علىٰ امتلاكهم لتلك الخصائص. هنا يدَّعي هايدغر أنَّ معاني وصيغ أو تغيُّرات الانتهاء التي عدَّدناها سابقًا لا تنطبق إلَّا علىٰ غير الـ **دازاين**. ولأنَّ البشر يختلفون جذريًّا عن الخبز، والرسوم أو الطرقات، والمطر، فإنَّ نهايتهم مختلفة جذريًّا عن نهاية كلِّ تلك الكيانات الأُخرىٰ:

لا يمكن للموت بأيٍّ من هذه الصيغ للانتهاء أنْ يكون خاصّيَّة مناسبة لنهاية الـ **دازاين**. فالموت بوصفه كونًا في النهاية - إذا فُهِمَ بمعنىٰ الانتهاء الذي ناقشناه - إذًا سيكون التعامل مع الـ **دازاين** كشيء حاضر بالمتناول أو جاهز بالمتناول. في الموت، الـ **دازاين** لم ينجز ولم يختفِ فقط، لم يصبح منتهيًا، ولا هو بالكامل في تصرُّف المرء بوصفه شيئًا جاهزًا في المتناول.

إنَّ تغيُّرات الانتهاء التي ناقشناها حتَّىٰ الآن - بتعبير شراغ - «لا تنطبق علىٰ وجود الـ **دازاين** الفريد، وبالتالي لا يمكن استعماله لوصف الموت باعتباره نهاية لوجوده - في - العالم».

بأيِّ معنىً يكون الموت نهاية الـ **دازاين**؟ للإجابة عن هذا السؤال علينا أنْ نشـرح بإيجاز مفهومًا أساسيًّا من مفاهيم كتاب الوجود والزمن، الوجوديَّة أو الاستباق أو ما يُسمّيه شراغ التوقُّع - وفقًا لهايدغر - يكون البشر دائمًا أمام أنفسهم، بمعنىٰ أنَّهم قلقون ولا يسعهم إلَّا أنْ يبدوا قلقهم حيال

علم المعرفة LLMOLMABDAA
العدد التاسع - 1446هـ - ربيع 2024م

مستقبلهم. ولتفسير سلوك أو حركة الأشياء غير الحيَّة ومعظم أو جميع الأشياء الحيَّة غير الإنسان، لا نحتاج أنْ نأخذ بنظر الاعتبار قلقها علىٰ المستقبل، لأنَّها لا تشعر بهذا القلق. من جهة أُخرىٰ - في حال البشر - لا نستطيع أنْ نفهم سلوكهم الراهن أو أحوالهم من دون أنْ نأخذ قلقهم حيال المستقبل بنظر الاعتبار. قد أضطرُّ في الأثناء أنْ أقول رغم اعتراضي علىٰ الاستخدامات المختلفة التي وضع لها هايدغر هذا المفهوم، فإنَّني لا أُناقش مطلقًا حقيقة أنَّ البشر يتميَّزون بالوجوديَّة أو الاستباق. يعتقد هايدغر أنَّنا لو احتفظنا بهذه الصفة الكلّيَّة للاستباق، فسوف نكتشف المعنىٰ المحدَّد الذي يختلف جذريًّا عن جميع المعاني الأُخرىٰ للموت، الذي يعني أنَّ الموت هو نهاية الـ **دازاين**:

الانتهاء الذي نقصده عندما نتحدَّث عن الموت لا يعني أنَّ الـ **دازاين** وجود - علىٰ - النهاية، بل وجود - نحو - نهاية هذا الكيان.

الموت - بوصفه نهاية الـ **دازاين** - هو في وجود هذا الكيان نحو نهايته.

يقول شراغ:

«إنَّ ظاهرة الموت تنكشف في خاصّيَّة التوقُّع عند الـ **دازاين** أو في استباقه. وهذا يُقدِّم فهمًا وجوديًّا للموت، وإذا فهم الموت وجوديًّا لا يعني وجودًا - في - النهاية. التوضيح الوجودي لمعنىٰ النهاية يسمح لنا باعتبار الموت وجد حتَّىٰ النهاية»[1].

«بالنسبة إلى المفكِّر الذاتي subjective الموت حقيقة حاضرة»[2].

«الموت نوع من القلق الإنساني... الذي ينكشف فيه زوال الوجود»[3].

يبدو أنَّ هايدغر يؤمن - بمعنىٰ حرفي تمامًا - أنَّ الإنسان هو مستقبله فعلاً والـ ليس بعد[4] خاصَّته، وبالتالي لا يجد صعوبة في استنتاج أنَّ نهاية الـ **دازاين** تكون حاضرة بالفعل عندما يكون حيًّا:

وكما أنَّ الـ **دازاين** هو بالفعل الـ ليس بعد خاصَّته، والـ ليس بعد خاصَّته مستمرَّة طالما أنَّه كائن، فإنَّها فعلاً نهايته أيضًا.

الموت ليس شيئًا يأتي إليه الـ **دازاين** في النهاية فقط عند موته، في الـ **دازاين** بوصفه وجودًا نحو موته، فهو يشتمل علىٰ أسمىٰ ليس بعد خاصًّا به فعلاً.

---

[1]- EF, p. 113.
[2]- Ibid. p. 108.
[3]- Ibid. p. 97.
[4]- "not - yet".

إضافةً إلىٰ أنَّ الـ **دازاين** «يُمدِّد نفسه بطريقة يكون نفس وجوده متشكِّلاً مسبقًا بوصفه تمدُّد إلىٰ الأمام».

بهذه الطريقة - بواسطة الاستباق والامتداد - يمكن أنْ يشتمل الـ **دازاين** علىٰ كامل مستقبله. يمكنه أنْ يأخذ مسبقًا بقيَّة حياته، ويمكنه كذلك أنْ يلحق بركب موته الخاصِّ.

نظرًا لأنَّ الاستباق إلىٰ الإمكانيَّة التي لا يمكن تخطِّيها يكشف أيضًا كلَّ الإمكانيّات الماثلة أمام تلك الإمكانيَّة (يعني كلُّ الأحداث التي ستحصل قبل موت المرء)، يشمل هذا الاستباق إمكانيَّة أخذ كلِّ الـ **دازاين** مسبقًا.

وغنيٌّ عن القول أنَّ هذا المزج بين الحاضر والمستقبل يحظىٰ بموافقة تامَّة من تلاميذ هايدغر المختلفين. كما يقول غلفن: «إنَّ عنصر الـ ليس بعد في الوجود الإنساني، هو شيء موجود بالفعل. والـ **دازاين** بمعنىٰ حقيقي هو فعلاً الـ ليس بعد خاصَّته. إضافةً إلىٰ أنَّ موت الـ **دازاين** الذي ليس بعد متاح فعلاً للاستعلام في دازاين حيّ وموجود»[1].

وعلىٰ هذا المنوال، يُؤكِّد لنا شراغ أنَّ: «المستقبل الوجودي حاضر فعلاً... والمستقبل ليس شيئًا سيصبح واقعًا علىٰ مرِّ الزمن في تاريخ لاحق. المستقبل واقع بالفعل...»[2].

ومن جديد: «في التوقُّع الوجودي، يُجلَب المستقبل إلىٰ الحاضر»[3].

«والـ **دازاين** بوصفه وجودًا مليئًا بالنشوة يمتدُّ إلىٰ... مستقبل يكون فيه بالفعل»[4].

ووفقًا لـ غلن غراي: «يمكن أنْ يتحرَّر المستقبل إذا فُهِمَ كجزء من الحاضر... سيرىٰ المستقبل منتميًا للحاضر بشكل أساسيٍّ... يجب النظر إلىٰ المستقبل بطريقة جديدة، بوصفه جزءًا من اللَّحظة الوجوديَّة... نحن نفهم مصطلح المستقبل بوصفه بُعدًا من أبعاد الحاضر»[5].

يُكرِّر هايدغر قوله: «إنَّ كلَّ البشر يموتون كلَّ الوقت، ويقول: إنَّ الـ **دازاين** الخاصَّ بالمرء في حالة موت دائم». (إنَّ الـ **دازاين** في حالة موت طالما أنَّه موجود. وتمامًا) الـ **دازاين** في حالة موت واقعًا وفعلاً دائمًا، طالما أنَّه لم يصل إلىٰ حتفه. من الواضح أنَّ هذه التعابير هي طريقة أُخرىٰ للتعبير عن الاعتقاد بأنَّ الحياة الإنسانيَّة هي وجود - نحو - الموت. وعندما يُؤكِّد هايدغر أنَّ كلَّ البشر يموتون كلَّ الوقت، فإنَّه لا يشير إلىٰ حقيقة أنَّ الخلايا تموت دائمًا في أجسام البشر. فهايدغر

---

[1]- CBT, p. 147.
[2]- EF, p. 127.
[3]- Ibid. p. 141.
[4]- Ibid. p. 146.
[5]- PD, pp. 59 - 60.

غير مهتمٍّ بهذه التفاصيل البيولوجيَّة. أنْ تكون حياة الإنسان وجودًا - نحو - الموت أمر كان يمكن أنْ يُعرَف (وأنا أفترض أنَّ هايدغر يقول: إنَّه معروف بالفعل، رغم أنَّه ليس بالطريقة الواضحة التي يُقنِّن فيها كتاب الوجود والزمن هذه المعرفة) قبل أنْ يعرف علماء البيولوجيا بوقت طويل أنَّ الخلايا تموت باستمرار حتَّىٰ قبل اكتشاف وجود الخلايا بوقت طويل. يُصنِّف هايدغر الحقائق البيولوجيَّة بخانة الموجوديَّة. وأنْ تكون الحياة البشريَّة وجودًا - نحو - الموت هو أمر وجوديّ. ورغم أنَّ معنىٰ أنطولوجيًّا لم يُشرَح بوضوح، يبدو أنَّ هايدغر لا يعتبر خصائص الكائن البشريِّ أنطولوجيَّة إذا لم تكون بشكلٍ ما مرتبطة بالضرورة بجزء من دستور إنسانيَّتها؛ والوجود - نحو - الموت مرتبط بالأساس بإنسانيَّته في حين أنَّ الحقائق التفصيليَّة التي اكتشفها علماء البيولوجيا ليست مرتبطة بها.

تُخبرنا ملاحظات الفقرة السابقة عمَّا لا يعنيه الموت بالمعنىٰ الوجوديِّ أو الأنطولوجيّ. وهي لا تُخبرنا ما لا تعنيه؛ وأنا لا أعتقد أنَّ أيًّا من المقاطع التي اقتبستها من هايدغر أو من شراغ أو دمسك يُفسِّر بوضوح مضمون الوجود - نحو - الموت. ولنكتشف هذا علينا أنْ نُحدِّد الشروط الضروريَّة والكافيَّة التي يجب تلبيتها من أجل وصف الحياة بأنَّها وجود - نحو - الموت. واضح أنَّ أحد الشروط هو أنَّ الكيان ينبغي أنْ يموت بالمعنىٰ البيولوجيّ. فكما أفهم هايدغر، إنَّ حياة البشر لا تكون حتمًا وجودًا - نحو - الموت إذا عاشوا إلىٰ الأبد بالمعنىٰ البيولوجي. لكن واضح أنَّ هذا الشرط غير كافٍ. لأنَّ هايدغر وأتباعه يُؤكِّدون علىٰ أنَّ حياة النباتات والحيوانات ليست وجودًا - نحو - الموت رغم أنَّهم أيضًا يموتون بالمعنىٰ البيولوجيّ.

ما الذي يصحُّ علىٰ البشر ولا يصحُّ علىٰ النباتات والحيوانات، ويجعلنا نُنسِب الوجود - نحو - الموت لإلى الإنسان ولا نُنسِبه إلى النباتات والحيوانات؟ بعض ملاحظات هايدغر بهذا الخصوص مبهمة، لكن عددًا من أتباعه كانوا أكثر وضوحًا، وأعتقد أنَّ فهم ما كان يدور في خلده سهل جدًّا. إذ كما عبرَّ الأب دمسك إنَّ:

«الكائنات الحيَّة غير البشريَّة يصلون إلىٰ النهاية بالفعل، لكنَّهم لا يتَّخذون موقفًا يتعلَّق بتوقُّفهم، وبالتالي ليس لديهم وجود حتَّىٰ النهاية».

وكما في المقطع الذي اقتبسناه سابقًا، يتحدَّث شراغ عن الوجود - نحو - الموت باعتباره أُسلوب قلق. فالبشر يعرفون أنَّهم سيموتون - بهذا المعنىٰ -، لا تعرف النباتات والحيوانات أنَّها ستموت. لدىٰ الحيوانات خوف غريزي من الموت، لكن هذا ليس كالوعي الواضح بالموت، وهذا بالتأكيد ليس ما يقصده هايدغر عندما يتحدَّث عن القلق الذي يختلف عن الخوف، أي إدراك أنَّ الموت يعني الانقراض التامّ أو البطلان التامّ. ما يعرفه البشر عن موتهم له - أو يمكن أنْ يكون له - كلَّ أنواع التأثير الهامِّ علىٰ سلوكهم وعلىٰ عواطفهم. باختصار إنَّ البشر خلافًا للنباتات والحيوانات يُفكِّرون

بموتهم، وقلقون حيال موتهم، وأحيانًا علىٰ الأقل يتصرَّفون بطريقة لم يكونوا ليتصرَّفوا بها لو لم يكونوا مدركين لموتهم. ووفقًا لهايدغر لا بدَّ من التأكيد علىٰ أنَّ الوجود - نحو - الموت ليس أمرًا نستطيع منعه، وليس - بأيِّ شكل من الأشكال - خاضعًا لسيطرتنا الإراديَّة. ما يخضع لإرادتنا هو أنْ يكون وجودنا - نحو - الموت أصيل أو غير أصيل. إنَّ الـ **دازاين** يحزم أمره دائمًا بطريقة أو بأُخرىٰ. والشائع أنَّ سير الـ **دازاين** نحو الموت هو من النوع غير الأصيل. تقريبًا وفي أغلب الأحوال يخفي الـ **دازاين** أقصىٰ ما يملك من وجوده - نحو - الموت، هاربًا من وجهه. الهروب الساقط يوميًّا من وجه الموت هو وجود - نحو - الموت غير أصيل. لكن هذا السلوك الهروبي لا يقل بوجوده - نحو - الموت عن الحقيقة الأصيلة:

وفي سقوطه وهروبه من وجه الموت هكذا، تشهد يوميَّة الـ **دازاين** أنَّ الـ هُم نفسها تملك فعلاً خاصّيَّة محدِّدة للوجود - نحو - الموت حتَّىٰ عندما لا ينشغل صراحةً بالتفكير بالموت.

الموت هو قضيَّة دائمة للـ **دازاين** حتَّىٰ في كليومعادي.الـ **دازاين** اليومي ليس أقلّ من دازاين أصيل هو نحو نهايته، أي يتَّجه باستمرار نحو مواجهة موته وإنْ كان ذلك في حالة هروبيَّة. ليس الوجود - نحو - الموت أمرًا يُحصِّله الـ **دازاين** لذاته... أحيانًا في مسار وجوده. إنَّ الوجود - نحو - الموت يُميِّز الـ **دازاين** من البداية. ينتمي أساسًا إلىٰ قذف الـ **دازاين** الذي يكشف نفسه في حالة ذهنيَّة بطريقة أو بأُخرىٰ.

يُوضح الكلام السابق أنَّ كلَّ المقصود بتعبير هايدغر أنَّ حياة الإنسان وجود - نحو - الموت، أوَّلًا أنَّ البشر يموتون، وثانيًا علىٰ خلاف النباتات والحيوانات إنَّ البشر قلقون حيال موتهم، بطريقة هروبيَّة أو غير هروبيَّة، وهم يعرفون ذلك. الاعتراض علىٰ هذا الكلام ليس أنَّه كاذب، بل إنَّه تافه. أعلن هايدغر وتلامذته هذا الاعتقاد بنوع من اللَّغط الذي يُدَّخر عادةً لمساهمة كبرىٰ بالمعرفة الإنسانيَّة. الانطباع الذي تكوَّن هو أنَّه اكتشاف كبير أو بصيرة نافذة؛ وفهمنا أنَّ هايدغر فنَّد، أو علىٰ الأقلّ صحَّح وجهة نظر المفكِّرين الوثنيِّين القدماء، والفلاسفة الطبيعانيِّين، وعوامِّ الناس، التي تعتبر الموت حقيقة خارجيَّة. من السهل أنْ نُبيِّن أنَّ مبدأ هايدغر ليس اكتشافًا لشيء، ولا يُجسِّد بصيرة نافذة، وأنَّه لا يُدحِض بأيِّ شكل، أو يُصحِّح، وجهة النظر التي تعتبر الموت حقيقة خارجيَّة. ما ينصُّ عليه هذا المبدأ هو في الغالب من الحقائق الشائعة التي لا يختلف عليها الوثنيُّون، والطبيعيُّون أو عوامُّ الناس، لكنَّه يصوغه بلغة طنّانة ومضلِّلة بشكل خيالي. قدَّم لنا تفاهات، مصحوبة ببعض الافتراءات وبعض الفروقات الأوَّليَّة ومجموعة من التعريفات الجديدة الخاطئة.

ولكي نُبيِّن خواء المعتقد الهايدغريِّ والميزة السلبيَّة لألعاب هايدغر اللَّفظيَّة من المفيد التأكيد علىٰ تمييز بسيط لا يجادل فيه أيُّ إنسان عاقل. وهو التمييز بين الموت (بالمعنىٰ العادي) والمعرفة بالموت والقلق حياله. الموت بالمعنىٰ العادي ليس طريقة للكون أو أُسلوب قلق إنسانيٍّ أو أُسلوب

حياة، إنَّه غياب الحياة. قد تكون معرفة الموت والقلق حياله أُسلوب حياة أو عناصر أو مكوِّنات أُسلوب الحياة. أنا حيٌّ أثناء كتابتي لهذه الكلمات (كانون الثاني 1974)، وموتي أمر لم يحصل بعد. يحصل قلقي حيال موتي عندما أكون حيًّا وهو يسبق موتي. للمناسبة سأستعمل الرمز d0 للإشارة إلىٰ الموت بالمعنىٰ العادي، وأستعمل الرمز cd للإشارة إلىٰ المعرفة بالموت والقلق حياله. أخبرنا هايدغر وتلاميذه أنَّ الموت إذا فُهِمَ وجوديًّا وبشكل صحيح فهو وجود - نحو - الموت. وهذا الفهم الصحيح والوجوديّ للموت، من المفروض أنْ يدخلن الموت ويُحوِّله إلىٰ حقيقة حاضرة. قيل: إنَّه يُبيِّن زيف أو قصور الرؤية الطبيعانيَّة. لكن هايدغر وأتباعه يقترحون استعمال كلمة موت بمعنىٰ جديد كلّيًّا ليصدق علىٰ cd وليس علىٰ d0. فإذا رغب شخص في الكلام بهذه الطريقة لا يوجد قانون يمنعه، لكن يمكن للمرء أنْ يقول: إنَّه لا يُحقِّق شيئًا، أو إنَّه لا يُحقِّق شيئًا له قيمة. إنَّ الإشارة إلىٰ cd بكلمة موت ليس اكتشافًا لشيء. ولا هي تُكذِّب النظريَّة الأبيقوريَّة أو تُصحِّحها. عندما قال أبيقور: عندما يكون الموت لا أكون، كان يتحدَّث عن d0 وليس عن cd. ولتكذيب d0 الأبيقورية وليس cd يجب البرهان علىٰ أنَّها حقيقة داخليَّة وحاضرة؛ وهذا ما لم يحصل. لقد دافع أبيقور عن موقف تجاه الموت شديد الاختلاف عن الموقف الذي يبدو أنَّ الهايدغريِّين يصادقون عليه. لكن يمكننا افتراض أنَّه لم يكن جاهلاً أو غافلاً عن حقيقة أنَّ الإنسان علىٰ خلاف النباتات والحيوانات، يعي موته ويقلق حياله. كما أنَّ التعريف الهايدغري الجديد للموت لم يتغلَّب علىٰ الصعوبات المنهجيَّة التي اشتكا منها مكويري وبوروس. إذا كان عدم القدرة علىٰ تجربة الموت كما نختبر القلق أو الوحدة صعوبة منهجيَّة، فإنَّ دخلنة هايدغر - وبصورة قاطعة - لا تستطيع التغلُّب عليها. فما نختبره، وما هو متاح للتحليل الفينومينولوجيِّ، وما يصبح شفّافًا ليس موتًا، d0، بل هو cd أو الأفكار والأمزجة المتعلِّقة بالموت؛ وهذه متوفِّرة دائمًا، حتَّىٰ قبل تحليل هايدغر الوجوديّ. ما لم يكن متاحًا للاستكشاف الفنومنولوجيِّ قبل دخلنة هايدغر ما زال غير متوفِّر بعده. وبالمناسبة إنَّ الصعوبة المنهجيَّة محض كذب. الناس الذين لا يُدركون بوضوح أنَّ الموت مجرَّد غياب للحياة، يعتبرونه حالة غريبة، يخوض المرء خلالها تجربة خوض اللَّاتجربة، ويميل هؤلاء للإيمان بتلك الصعوبة المنهجيَّة. لكن كيف يمكنني أنْ أكتشف ما معنىٰ أنْ أُجرِّب ألَّا يكون عندي تجربة؟ هذه صعوبة لأنَّنا - بحكم التعريف - يستحيل أنْ نُجرِّب ألَّا يكون لدينا تجربة. لكن لا يوجد سبب وجيه للتفكير بالموت بهذه الطريقة. فإذا فُهِمَ الموت علىٰ أنَّه مجرَّد غياب للحياة، إذًا ليس ثمَّة صعوبة. ليس ضروريًّا أنْ أكون ميِّتًا كي أفهم المقصود بعبارة أنَّني في القرن الحادي والعشرين سأكون ميِّتًا حتمًا، فأنا أفهم ذلك تمامًا كما أفهم المقصود بالقول: إنَّني في القرن التاسع عشر لم أكن حيًّا بعد[1].

الإمكانيَّة القصوى للدازاين في درء القلق

علىٰ عكس ما ادَّعىٰ شراغ، لم يكن تعريف هايدغر الجديد تفسيراً أو توضيحًا لأيِّ شيء علىٰ

[1]- For a detailed discussion of the confusions discussed in this paragraph, see my article,ED, pp. 87 - 477.

الإطلاق. فعلىٰ العكس، إنَّ الفارق الذي لا يمكن إنكاره بين cd و d0تمَّ حجبه والتعمية عليه. بالطبع لا يستطيع هايدغر نفسه أنْ يفلح من دون هذا التمييز. لذلك يتحدَّث عن أقصىٰ إمكانيَّة للـ **دازاين** ويبالغ في الكلام عن القلق الموجود في المقاربة الأصيلة لهذه الإمكانيَّة القصوىٰ. الإمكانيَّة القصوىٰ هي الموت وليس الوجود - نحو - الموت؛ وإذا لم يتميَّز الموت عن الوجود - نحو - الموت لن تكون المقاربة الأصيلة مقاربة لأيِّ شيء. الوجود - نحو - الموت هو وجود نحو الموت بالمعنىٰ العادي، أي نحو d0. إنَّه ليس وجودًا نحو cd، نحو الموت بالمعنىٰ الوجودي أو المعرف من جديد، هو وجود - نحو - الموت وليس وجودًا - نحو - الوجود نحو الموت.

يمكن اكتشاف خواء المعتقد الهايدغريِّ بوضوح شديد عندما نمعن النظر في تأكيد هايدغر علىٰ أنَّ كلَّ البشر - بما فيهم الشباب الذين يتمتَّعون بكامل الصحَّة والذين يعيشون أفضل حياة ممكنة، يموتون دائمًا. هذا بالتأكيد يبدو كأنَّه اكتشاف. ويبدو أنَّه يتعارض مع المعتقدات المقبولة عمومًا، لكن هذا الظاهر مضلِّل. لنفرض أنَّ سموئيل بلو رجل في الخامسة والخمسين من العمر، وهو يحتضر (بالمعنىٰ العاديِّ) بسبب مرض عضال كسـرطان المعدة. ولنفرض أنَّ له ولدًا اسمه بوبي في العشرين من عمره، وهو يبدو بصحَّة جيِّدة جدًّا. وأنَّ طبيب العائلة - الدكتور أدلمن - معتنق لفلسفة هايدغر. بوبي يخضع لفحوصات دوريَّة، ولا يجد الدكتور أدلمن ما يريب في صحَّته. غير أنَّ الدكتور يُخبِر الوالدة: «آسف لأُخبركِ أنَّه ليس زوجكِ فقط الذي يموت، بل ولدك بوبي أيضًا يموت». المرأة التعيسة تصـرخ مرعوبة: لكنَّه بصحَّة جيِّدة، وما زال في ريعان شبابه، لا تقل لي: إنَّه أيضًا مصاب بالسـرطان. يرد الدكتور أدلمن علىٰ هذا الكلام: لا، لا، ليس مصاباً بالسرطان، بل يتمتَّع بأفضل صحَّة، لكن يجب أنْ تعلمي أنَّه سيموت في النهاية، وأنَّه يعرف أنَّه سيكون لديه موقف - أصيل أو غير أصيل -، أنا لست متأكِّدًا من موقفه تجاه موته. سترد والدة بوبي - إذا حافظت علىٰ رباطة جأشها - بما يتناسب مع الوضع: ارتحت لسماع أنَّ بوبي يموت بهذا المعنىٰ الذي تقصده. وأنا أتمنّىٰ أنْ يكون زوجي يموت بهذا المعنىٰ أيضًا. إنَّ كلام الدكتور أدلمن عن موت بوبي مبتذل، وطبيعة ابتذاله لا تظهر علىٰ الفور، لأنَّه يستعمل عبارة مألوفة بمعنىٰ غير مألوف. ظاهر قول هايدغر: إنَّ كلَّ إنسان في كلِّ زمان مريض علىٰ نحو مميت مثل سموئيل بلو. وهذا بالفعل سيكون اكتشافًا هائلاً وساحقًا، لكنَّه زائف، وإنَّه ليس ما يُؤكِّد عليه هايدغر في الحقيقة. بدا كأنَّ الطبيب الهايدغري توصَّل إلىٰ اكتشاف مفاجئ بالنسبة إلى بوبي لكن هذا لم يحصل في الواقع، وبدا كأنَّ هايدغر أضاف شيئًا إلىٰ معرفتنا وفهمنا عندما أعلن أنَّ كلَّ إنسان في موت مستمرٍّ لكنَّه في الحقيقة لم يفعل شيئًا.

إنَّ حجَّة هايدغر بأنَّنا لا نعني بـ النهاية عندما نتحدَّث عن نهاية حياة إنسان، نفس ما نعنيه عندما نتحدَّث عن نهاية حياة نبتة أو حيوان أو نهاية أيِّ شيءٍ غير حيٍّ، هي حجَّة مضلِّلة تمامًا. فعندما نتحدَّث عن نهاية النوع الثاني من الكيانات نقصد أنَّه يتوقَّف أو توقَّف عن الوجود. لكنَّه يزعم أنَّنا لا نقصد هذا عندما نتكلَّم عن نهاية حياة إنسان. تقوم الحجَّة الداعمة لهذه النتيجة علىٰ دعوىٰ

أنَّ الإنسان يختلف عن الكيانات الأُخرىٰ، إنَّه دازاين - يتميَّز بخصائص أو قدرات كالاستباق أو الوجوديَّة. هذا صحيح، غير أنَّه لا يُبرهِن علىٰ فكرة هايدغر. لا نستطيع أنْ نستنتج من حقيقة أنَّ البشر هم دازاين مباشرةً، أنَّ ما ينطبق علىٰ غير الـ **دازاين** لا ينطبق عليهم أيضاً. وكذلك لا نستطيع أنْ نستنتج أنَّ الكلمة نفسها عندما تحمل علىٰ الاثنين، لا تدلُّ علىٰ المعنىٰ نفسه في الحالين. مقولة السببيَّة تنطبق بوضوح علىٰ غير الـ **دازاين**. قد يكون هذا صحيحًا، لكنَّنا لا نستطيع أنْ نستنتج بطريقة آليَّة أنَّ أفعال البشر لأنَّهم دازاين لا تتسبَّب بنفس المعنىٰ الذي نتكلَّم فيه عن سببيَّة الحوادث الماديَّة والظواهر البيولوجيَّة البحتة. في الواقع - وبصرف النظر عن هايدغر وشراغ - من الواضح تمامًا أنَّنا عندما نتحدَّث عن نهاية حياة إنسان إنَّنا نستعمل كلمة نهاية بنفس المعنىٰ تمامًا الذي نستعمله عندما نتحدَّث عن نهاية غير الـ **دازاين**. فعندما ينهدم منزل أو يحترق يكون وجوده قد وصل إلىٰ النهاية. لقد توقَّف وجوده ومنع من البقاء بعد الموت، وهذا ليس ما يهتمُّ به هايدغر وشراغ، والأمر نفسه يكون صحيحًا تمامًا عندما يموت إنسان. أنْ تكون موضوعات هذه القضايا مختلفة بعضها عن بعض في كلِّ شيء، لا يعني أنَّ كلمة نهاية تحمل عليها بمعانٍ مختلفة. طبعًا إذا أعدنا تعريف النهاية لتعني معرفة النهاية والقلق حيالها، أي الوجود - نحو - النهاية، كما فعل هايدغر في نهاية المطاف، فإذا الـ **دازاين** ينتهي فعلاً بمعنىٰ لا ينتهي فيه غير الـ **دازاين**. لكن هذا ليس توضيحاً لشيء. إنَّها الخدعة اللفظيَّة ذاتها التي كشفناها من قبل عندما تحدَّثنا عن كلمة موت.

يبدو بعض أنصار هايدغر مدركين بصعوبة لخواء المبدأ الذي نناقشه. وهم يحاولون الدفاع عنه من خلال الُّلجوء إلىٰ بعض الحقائق الإمبريقيَّة الإضافيَّة. فالأب دمسك يقتبس مقطعًا من كارل رانر يقول فيه الأخير: إنَّنا نكون خلال الحياة..

«خائبي الأمل باستمرار، نخترق الحقائق من دون توقُّف وصولاً إلىٰ عدمها، ونواصل تضييق إمكانات الحياة الحرَّة من خلال قراراتنا الفعليَّة وحياتنا الواقعيَّة، نموت طوال الحياة... وما نُسمّيه موتًا هو في الواقع نهاية الموت، إنَّه موت الموت».

كما يقتبس دمسك بعض الجمل التي كتبها تانب الهايدغريّ الياباني الذي أشرت إليه في بداية هذا البحث. يُكرِّر تانب القول: إنَّ الإنسان «يُحيى وهو يموت»، وأيضًا «يموت وهو يُحيىٰ»، يُفسِّر دمسك معنىٰ هذه العبارات:

«طوال الحياة يُجبرَ الإنسان دائمًا علىٰ ترك الأشياء، وعلىٰ نكران ذاته، وأنْ يستمرَّ من دون شيء، ويهب نفسه»[1].

[1]- يجب التأكيد انصافًا لتانب أنَّ هذه المقالة لا ترتبط كليًّا بسؤال دمسك، فقضيَّته الإنسان يعيش وهو يموت ويموت وهو يعيش عرضيَّة في موضوعه، وهذا يشمل تأسيس كلِّ ما هو متناهي وزماني في المطلق اللَّامتناهي الذي أُبدي أيضًا، طبيعة اللَّاشيء مطلقًا والمصدر الحسّي لحادث هايدغر. طرح تانب مجموعة من الملاحظات التي ينبغي أنْ يكون لها أهمِّيَّة خاصَّة لطُلّاب اللَّاشيء.

يجب الردُّ علىٰ هذا، بإعلان هايدغر أنَّ الحياة الإنسانيَّة وجود - نحو - الموت، فهو لا يُؤكِّد علىٰ أيٍّ من الحقائق التي ذكرها رانر وتانب. المفروض أنَّه لم يُنكِر أنَّ كلَّ إنسان أو تقريبًا كلَّ إنسان يشعر بخيبة الأمل أحيانًا، لأنَّه مضطرٌّ للتضحية، ويحرم نفسه من بعض الملذّات، لكن هذه مسألة إمكانيَّة بحتة ويُصنِّفها هايدغر ضمن الأُمور الموجوديَّة. مقنع منطقيًّا علىٰ الأقلّ أنَّ الإنسان يمكن أنْ يجتاز الحياة من دون أنْ يخيب أمله لمرَّة واحدة، ومن دون أنْ يُحرم نفسه من أيِّ شيء. إنَّ حياة هذا الشخص، كما يستعمل هايدغر التعبير، تكون نموذجًا للوجود - نحو - الموت. الأمر كذلك، لأنَّه رغم تحرُّره من خيبات الأمل وغياب التضحيات، هو أيضًا قد يموت، وهو أيضًا قد يعرف أنَّه كان سيموت ويتَّخذ موقفًا تجاه موته.

كلمة أخيرة حول فكرة هايدغر التي ترىٰ المستقبل موجود في الحاضر، وأنَّني فعلاً كلَّ ليس بعد خاصَّتي بما في ذلك موتي. واضح أنَّهَ واقع تحت تأثير بعض الصور، الصور المرتبطة بكلمات الاستباق[1]، الامتداد[2]، السعي[3]، والتوقُّع[4]. يمكن أنْ أمدَّ يدي وأصل إلىٰ رشّاشة الملح بينما أبقىٰ جالسًا علىٰ الكرسي. وإذا كنت في الصفِّ الأمامي من موكب يمكن أنْ أركض إلىٰ الأمام وبالتالي أكون مسبقًا في الموقع الذي كان من الممكن أنْ أحتلَّه لو بقيت في الصفِّ. يعتقد هايدغر أنَّ المرء بالطريقة نفسها يمكن أنْ يتمدَّد أو يدخل إلىٰ المستقبل بينما يكون في الحاضر. لو كان هذا ممكنًا، لأمكن أنْ أكون الآن ما ليس بعد خاصَّتي، ولأمكن أنْ أستوفي موتي في الحاضر. لكنَّه ليس ممكنًا. يمكن أنْ يحمل أتباع هايدغر هذا النوع من الكلام علىٰ محمل الجدِّ فقط عندما يدار علىٰ مستوىٰ مجرَّد تمامًا، لا يُخفَّف بتوضيح مادّيٍّ واحد. أستطيع الآن - عام 1974 - أنْ أُفكِّر بعام 1975 وغيره من أعوام المستقبل، لكنَّني لا أستطيع أنْ أعيشها في الواقع. أستطيع مجازًا أنْ أستبق وأتمدَّد إلىٰ عام 1975، لكن كلَّ ما يعنيه هذا هو أنَّني أستطيع التفكير في، وأُخضِّر لـ، وآمل، وأخاف من 1975. لا أستطيع أنْ أستبق في الواقع عام 1975، أو أتمدَّد إلىٰ عام 1975؛ وكما رأينا، إنَّه استباق حرفيٌّ لكنَّه بالفعل من أجل مقصد هايدغر دخلنة الموت[5]. إذا كنت سأموت حقيقةً بعد عشر سنوات من كتابة هذه الكلمات، فإنَّني لا أستطيع الاستباق فعليًّا، وأنْ أتمدَّد وأُلاقي موتي. ليس صحيحًا بكلِّ المعاني غير الشاذَّة، أنَّني نهايتي بينما أنا حيٌّ؛ وعمومًا ليس صحيحًا أنَّني بالفعل كلُّ ما ليس بعد خاصَّتي. ومهما كان قدر الشعوذة اللَّفظيَّة، فإنَّها لن تجعل الأمر خلاف ذلك.

---

[1]- Vorlaufen.

[2]- Erstrecken.

[3]- Einholen.

[4]- Vorwegnehmen.

[5]- وضروري أيضًا لحلِّ مشكلة شموليَّة هايدغر التي كنت مضطرًّا لإهمالها في هذا البحث ينبغي أنْ أُضيف أنَّ أفكاره حول الزمن ليست كلُّها بأيِّ شكل تافهة، فلديه فكرة مهمَّة يُصرِّح بها بغموضٍ تامٍّ، لكنَّه أعاد التصريح بها مؤخَّرًا بلغة أكثر وضوحًا من خلال:
C. M. Sherover in Heidegger, Kant and Time (Bloomington, 1971, see esp. pp. 191ff. and 260ff.).

قائمة المصادر والمراجع

1. My Own Life,' reprinted in Norman Kemp Smith (ed.), Hume's Dialogues Concerning Natural Religion (Edinburgh, 1935), p. 239. The same volume contains the remarkable letter from Adam Smith to William Strahan describing Hume's last month. Both these documents are also reprinted in J.Y.T. Greig (ed.),The Letters of DavidHume, vol. II (Oxford, 1932).

2.'The Problem of Death in Modern Philosophy' (hereafter cited as PD) in N. A. Scott, Jr. (ed.), The Modern Vision of Death (Richmond, Virginia, 1967), p. 55.

3.'Todesdialektik', in Martin Heidegger zum 70. Geburtstag (Pfullingen, 1959), p. 94.

4.ACommentary on Heidegger's Being and Time (hereafter cited as CBT) (New York, 1970), pp.51 - 150.

5. An Existentialist Theology (hereafter cited as ET) (London, 1955), p. 118.

6. Being and Time, trans. John Macquarrie and Edward Robinson (London, 1962), p. 308. Being and Time will hereafter be cited as BT.

7. Being, Man, and Death (hereafter cited as BMD) (Lexington: The University of Kentucky Press, 1970), pp. 2 and 5.

8. BT, p. 308. Heidegger's original is "einzig von ihm selbst her… übernehmen" which means "taken over by [Dasein] itself exclusively". The M.R translation is idiomatically quite correct in using "alone".

9. Existence and Freedom (hereafter cited as EF) (Evanston, 1961), p. 108.

10. Father Ladislaus Boros.

11. For a detailed discussion of the confusions discussed in this paragraph, see my article,ED, pp. 87 - 477.

12. John Macquarrie.

13. Studies in Christian Existentialism (hereafter cited as SCE), p. 51.

14. The Challenge of Existentialism (hereafter cited as CE) (Bloomington, 1959), p. 82.

15. The Moment of Truth (hereafter cited as MT) (London, 1965), p. 1.

16. The Savage God (London and New York, 1971), p. 190.

17. What is Existentialism? hereafter cited as WE (New York, 1964), p. 62.